سُورَةُ الحُجُرَاتِ

النزول: مدنية.

المقاصد:

١ ـ بيان معاني الإيمان ومقتضياته.

٢ ـ تعظيم شرع الله تعالى وتقديمه.

٣ ـ تعظيم النبي ﷺ، وحُسْنُ التأدُّب معه.

٤ ـ حماية المجتمع المسلم من أسباب الشقاء والريبة.

۞ ۞ ۞

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٤ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥﴾

١ ـ ٢ ـ سبب النزول:

عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما: أنَّه قَدِمَ ركبٌ من بني تميم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر: أمِّرِ القعقاع بن مَعبد، وقال عُمر: بل أَمِّرِ الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أرَدْتَ إلى ـ أو إلا ـ خلافي، فقال عمر: ما أردتُ خِلافَك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ حتى انقضت الآية. (صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ سورة الحجرات، باب (الآية) ٨/ ٤٥٧ برقم ٤٨٤٧).

التفسير:

يُرشد الله تعالى المؤمنين إلى أدب التعامل في مخاطبة النبيِّ ﷺ، فينهاهم عن المسارعة في الأشياء بين يديه وقبله، وعن قضاء أمر من أمور الشريعة دون أمر الله تعالى ورسوله ﷺ، ويأمرهم بتقوى الله فيما أمر وزجر. إنَّه سبحانه سميع للأقوال، عليم بالأحوال والأفعال، ونهاهم سبحانه في أثناء

المخاطبة عن رَفْعِ أصواتهم فوق صوته ﷺ، ونهاهم عن الجهر عند ندائه ﷺ كما يجهرون فيما بينهم إذا نادى بعضهم بعضاً، بأن يُنادى بنداء يليق بمقام النبوَّة؛ خشيةَ أن تبطل أعمالهم، وهم لا يشعرون بذلك.

قال ابن عاشور: «ولقد تَحَصَّل من هذا النهي معنى الأمر بتخفيض الأصوات عند رسول الله ﷺ؛ إذ ليس المراد أن يكونوا سكوتاً عنده». (التحرير والتنوير: ٢٦/ ١٨٣).

٣ ـ ٤ ـ ويُؤَكِّد الله سبحانه ذلك بثنائه على الصحابة رضي الله عنهم الذين يخفضون أصواتهم عند رسول الله ﷺ: أولئك أصحاب الدرجات العالية الذين اختبر الله قلوبَهم، وأخلصها لتقواه في امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، لهم من الله تعالى مغفرة لذنوبهم، وثواب عظيم في جنَّة النعيم. ويُؤَكِّد مرَّة أخرى ذَمَّ الذين ينادونه ﷺ من وراء بيوت نسائه بصوت مرتفع، ووصف أكثرهم بأنَّهم لا يعقلون التعامل مع النبيِّ ﷺ، ولا يدركون مقامه. قال ابن عاشور: «ونَفْيُ العقل عنهم مراد به عقل التأدُّب الواجب في معاملة النبيِّ ﷺ».

(التحرير والتنوير: ٢٦/ ١٨٨).

٥ ـ ولو أنَّ هؤلاء الذين رفعوا أصواتهم انتظروا حتى يخرجَ إليهم النبي ﷺ من بيته، لكان أفضل لهم عند الله تعالى.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ أفاد تذييل الآية الأولى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ مراقبة الله تعالى في القول والعمل، وتجويدهما.

٢ ـ حرمة الرسول ﷺ بعد مماته كحرمته في حياته، فلا يُقَدَّمُ قولٌ أو رأيٌ على كلام الله وسُنَّة رسوله ﷺ، ويُراعَى الأدب في مجالس العلم وخَفْض الصوت عند قبر رسول الله ﷺ.

٣ ـ الحذر من محبطات الأعمال، وضرورة اليقظة.

٤ ـ الأدب من كمال العقل، وثمرة التُّقى.

٥ ـ مراعاة الأوقات الملائمة للزيارة، وأدب الاستئذان.

٦ ـ عَلَّق البقاعي على حرمة رفع الصوت على النبي ﷺ بقوله: «وهذا

يدل على أن أذى العلماء الذين هَيَّأهم الله لتَلَقِّي فَهْمِ دينه عنده شديد جداً، فإنَّ تكديرَ أوقاتهم يمنعهم عن كثير من ذلك». (نظم الدرر ٧/ ٢٢٦).

٧ ـ الأدب عند الأكابر يبلغ بصاحبه إلى الدرجات العلى، والخير في الأولى والعقبى.

٨ ـ تنكير ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾؛ لتعظيمها وتفخيمها. وفي هذا إيماء إلى إثم مَنْ رفع صوته عند رسول الله ﷺ.

٩ ـ ينظر: صورة حجرات النبي ﷺ، كما في الملحق.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٨ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝١٠﴾

٦ ـ سبب النزول:

عن الحارث بن أبي ضرار الخزاعي رضي الله عنه قال: قدمت على رسول الله ﷺ، فدعاني إلى الإسلام، فدخلت فيه وأقررت به، فدعاني إلى الزكاة فأقررت بها، وقلت: يا رسول الله أرجع إلى قومي، فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة، فمَن استجاب لي جمعت زكاته، فيرسل إليَّ رسول الله ﷺ رسولاً إبَّان كذا وكذا ليأتيك ما جمعت من الزكاة.

فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له، وبلغ الإبَّان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه، احتبس عليه الرسول فلم يأته، فظَنَّ الحارث أنَّه قد حدث فيه سخطة من الله عز وجل ورسوله، فدعا بسَرَوات قومه، فقال لهم: إن رسول الله ﷺ كان وَقَّت لي وقتاً يرسل إلي رسوله ليقبضَ ما كان عندي من

الزكاة، وليس من رسول الله ﷺ الخلف، ولا أرى حَبْسَ رسوله إلا من سخطة كانت، فانطَلِقُوا فنأتي رسول الله ﷺ، وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده ممَّا جمع من الزكاة.

فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطرق فرق فرجع، فأتى رسول الله ﷺ، وقال: يا رسول الله إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي، فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث، فأقبل الحارث بأصحابه، إذ استقبل البعث، وفصل من المدينة لقيهم الحارث فقالوا: هذا الحارث! فلما غشيهم قال لهم: إلى مَنْ بُعثتم؟ قالوا: إليك. قال: ولِمَ؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ كان بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله، قال: لا والذي بعث محمداً بالحق ما رأيته بَتَّةً ولا أتاني، فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: «مَنَعْتَ الزكاة وأَرَدْتَ قَتْلَ رسولي». قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني، وما أقبلت إلا حين احتبس عليَّ رسولُ رسولِ الله ﷺ، خشيت أن تكون كانت سخطة من الله ﷻ ورسوله، قال: فنزلت الحجرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ إلى هذا المكان: ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾. (أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤/ ٢٧٩، وأخرجه ابن أبي حاتم (تفسير ابن كثير ٤/ ٢٠٩)، والطبراني في الكبير (٣/ ٢٧٤، برقم ٣٣٩٥). قال ابن كثير: وقد روي من طرق، ومن أحسنها ما رواه الإمام أحمد .. فساق هذا الحديث. وعزاه الهيثمي لأحمد والطبراني، وقال: ورجال أحمد ثقات (مجمع الزوائد ٧/ ١٠٩)، وقال السيوطي في الدر: .. بسند جيد. ا.هـ. وله شواهد عن مجاهد وقتادة أخرجهما الطبري. وقال محققو المسند: حسن بشواهده، دون قصة إسلام الحارث بن ضرار الخزاعي (المسند ٢٥/ ٤٠٣ ـ ٤٠٥ برقم ١٨٤٥٩).

التفسير:

يُحَذِّر الله تعالى المؤمنين من خبر الفاسق، بأنَّه يجب التثبُّتُ من صحَّة الخبر قبل تصديقِه ونَشْرِه، خشية أن يجرَّ هذا الخبر إلى الوقوع في ظلم الناس الأبرياء، فيندموا على ذلك التسرُّع.

٧ ـ ٨ ـ واعلموا ـ معشر المؤمنين ـ أنَّ بين أظهركم رسولَ الله ﷺ، فعَظِّمُوه ووَقِّرُوه، وانقادوا لأمره، فإنَّه أعلم بمصالحكم؛ لأن الله تعالى

لا يأمر رسوله إلا بما فيه صلاح العاقبة، ولو يُطيعكم في كثير من اقتراحاتكم واجتهاداتكم، لَوَقَعْتُم في مشقَّةٍ وحرج، ولكنَّ الله بفضله حَبَّب إليكم الإيمان وزَيَّنه في قلوبكم، وكرَّه إليكم أنواع الضلال من الكفر والخروج عن طاعته وارتكاب المعاصي. أولئك أصحاب المنازل الرفيعة هم المهتدون إلى اتِّباع الحقِّ. هذا الهدي العظيم فضل كريم من الله ونعمة منه. والله عليم بأحوال عباده، حكيم في تدبيره.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قرأ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾ قال: هذا نبيكم ﷺ يُوحى إليه، وخيارُ أئمتكم، لو أطاعهم في كثير من الأمر لَعَنَتُوا، فكيف بكم اليوم؟.

(أخرجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب. (السنن ٥/ ٣٨٨ ـ ٣٨٩ ـ كتاب التفسير، باب سورة الحجرات برقم ٣٢٦٩)، وصححه الألباني في (صحيح سنن الترمذي).

٩ ـ سبب النزول:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قيل للنبي ﷺ: لو أتيتَ عبد الله بن أُبيّ؟ قال: فانطلق إليه، وركب حماراً، وانطلق المسلمون، وهي أرضٌ سَبَخةٌ، فلمَّا أتاه النبي ﷺ قال: إليك عنِّي، فوالله لقد آذاني نَتْنُ حمارك. قال: فقال رجل من الأنصار: والله! لحَمارُ رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك، قال: فغضب لعبد الله رجلٌ من قومه، قال: فغضب لكل واحد منهما أصحابه، قال: فكان بينهم ضَرْبٌ بالجَريد وبالأيدي وبالنِّعال. قال: فبلغَنا أنَّها نزلت فيهم: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾. (صحيح البخاري ـ كتاب الصلح، باب ما جاء في الإصلاح برقم ٢٦٩١. وصحيح مسلم ٣/ ١٤٢٤ ـ كتاب الجهاد والسير، باب في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين برقم ١٧٩٩). أرض سبخة: هي الأرض التي تعلوها الملوحة، ولا تكاد تُنبت إلا بعض الشجر. (النهاية لابن الأثير: ٢/ ٣٣٣).

التفسير:

يحثُّ الله تعالى المؤمنين على الصلح إذا وقع قتال بين طائفتين من المؤمنين، فيجب أن تقوم طائفة أُخرى من المؤمنين بالصلح بما يُرضي الله تعالى، ويؤكِّد سبحانه وجوب الصلح، وأنَّه إذا اعتدت إحدى الطائفتين على

الأخرى ولم تَرْضَ بالصلح، وجب قتال الطائفة المعتدية إلى أن ترجع إلى حكم الله تعالى ورسوله، فإن رجعت فأصلحوا بينهما بالإنصاف، بإعطاء كلِّ ذي حَقٍّ حَقَّه بالقسط والعدل. إنَّ الله يحبُّ العادلين بين الناس.

١٠ ـ ثمَّ يُؤَكِّد سبحانه ذلك مرَّة أخرى بأنَّ المؤمنين إخوةٌ في الدين، فيجب الإصلاح بين الإخوة، ثم يأمرهم بتقواه في امتثال أوامره واجتناب نواهيه؛ لكي تفوزوا برحمة الله الواسعة؛ وفيه ترغيب في الصلح أيضاً.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ وجوب التثبُّت من الأخبار والتحري والدقة، وقبول خبر الواحد، والاحتجاج به إذا كان عدلاً.

٢ ـ الأمر بالتثبت من خبر الفاسق لا يعني إهمال خبره إذ قد يكون صادقاً؛ فيترتب على إهمال خبره وقوع مفسدة، أو تفويت مصلحة.

٣ ـ تَنَوُّع الأساليب القرآنية في النهي عن المنكرات، والتنفير منها، والترهيب من عاقبتها مع إيجاز في ذلك بليغ.

٤ ـ المؤمن إذا ارتكب كبيرة من الكبائر لا يخرج عن الملة.

٥ ـ وقوع الاقتتال بين طائفتين من المؤمنين لا يُخرجهما عن الإيمان، بدليل نسبة الطائفتين إلى المؤمنين.

٦ ـ ضرورة الإسراع إلى رأب الصدع، والمبادرة إلى الإصلاح بين المتخاصمين.

٧ ـ وجوب قتال الفئة الباغية حتى ترجع إلى أمر الله.

٨ ـ من ثمرات التقوى أنَّها تجلب رحمة الله تعالى.

٩ ـ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ أما في حياته فظاهرٌ، وأما بعد مماته فبهَدْيِه وسيرته وسنته. وتلك نعمة من الله وعصمة لعباده المؤمنين ألا يُتْرَكوا بلا منهج ولا أسوة، فيبيتوا نهباً لأصحاب المذاهب الهدامة، والتصورات الباطلة.

١٠ ـ دَلَّ قوله تعالى ﴿وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾ على أنَّ المعاصي متفاوتة، وبعضها أقبح من بعض فبدأ بأشنعها وهو الكفر، ثمَّ الفسوق وهو الخروج عن الطاعة والمجاهرة بالعصيان، ثمَّ العصيان.

١١ ـ ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ وَضَعَ الظاهر موضع الضمير مضافاً إلى المخاطبين؛ لاستثارة عاطفة الأخوة واستنفارها.

١٢ ـ إذا كانت المبادرة إلى إصلاح ذات البين من المهمات الواجبات، فإن الإفساد بين الناس والسعي بالنميمة والوشاية والتحريض، وإضرام الفتن، من أكبر المنكرات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾

١١ ـ سبب النزول:

عن أبي جبيرة بن الضحاك رضي الله عنه قال: نَزَلَتْ هذه الآية في بني سلمة: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ﴾ قال: قَدِمَ علينا رسول الله ﷺ، وليس منَّا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فجعل النبي ﷺ يقول: «يا فلان» فيقولون: مَهْ يا رسول الله، إنه يغضب من هذا الاسم، فأنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾. (أخرجه أبو داود في السنن ٤/ ٢٩٠، ٢٩١ برقم ٤٩٦٢ ـ كتاب الأدب، باب في الألقاب، وأخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح (السنن ٥/ ٣٨٨ برقم ٣٢٦٨)، وابن ماجه (السنن ٢/ ١٢٣١ برقم ٣٧٤١)، وأحمد (المسند ٤/ ٢٦٠) والطبري (التفسير سورة الحجرات ٢٦/ ١٣٢)، والحاكم (المستدرك ٢/ ٤٦٣). وصححه ووافقه الذهبي. وقال الألباني: صحيح (صحيح أبي داود برقم ٤١٥١).

التفسير:

وبما أنَّ السخرية من أسباب نشوب القتال، فقد نهى سبحانه المؤمنين أن يهزأ قوم من قوم آخرين، عسى أن يكون المهزوء بهم خيراً من الهازئين،

ولا يهزأ نساء من نساء، عسى أن تكون المهزوءُ بها خيراً من الهازئات، ولا يَعِبْ بعضكم بعضاً، ولا يُعَيِّر بعضكم بعضاً بما يكره من الألقاب. بئس الصفة والاسم الفسوقُ، كالصفات المنهيِّ عنها بعد أن صِرْتُم من أهل الإيمان. ومَنْ لم يَتُبْ من هذه الصفات القبيحة فأولئك البعداء عن الحقِّ هم الذين ظلموا أنفسهم بالوقوع في هذه المُحَرَّمات.

١٢ ـ يُحَذِّر الله تعالى المؤمنين من سوء الظنِّ بالمؤمنين، وأن يجتنبوه؛ لأنَّ بعض ذلك الظنِّ يوقع صاحبه في الإثم، ونهى عن البحث عن عورات المسلمين وتَتَبُّع عيوبهم، ونهى عن أن يذكر المؤمن أخاه بما يكره في غيبته، ونَفَّر منها: أيُحِبُّ أحدكم ـ أيُّها المسلمون ـ أَكْلَ لحم أخيه المسلم وهو مَيِّت؟! فكما تكرهون ذلك فاكرَهوا الغِيبة، واتَّقوا الله بطاعة أمره. إنَّ الله توَّابٌ على عباده المؤمنين، رحيم بهم.

١٣ ـ لما أمر الله تعالى المؤمنين بأن يكونوا إخوة، وأن يُصْلحوا بين الطَّوائف المتقاتلة، ونهاهم عن السخرية، واللَّمْز، والتنابز، والظنِّ السوء، والتجسُّس، والغِيبة، ذَكَّرهم بأصل الأخوَّة في الأنساب التي أكدتها أخوَّة الإسلام.

فيُخاطب الله البشر: إنَّا ـ لما لنا من العظمة الكاملة والقدرة الشاملة ـ خلقناكم من ذَكَرٍ أبٍ واحدٍ هو: آدم، وأنثى أُمٍّ واحدةٍ هي: حواء، فلا تفاخُرَ بينكم في الأنساب، وجعلناكم بالتناسُلِ شعوباً، ومن الشعوب قبائل متعدِّدة؛ ليعرف بعضكم بعضاً. إنَّ أَفْضَلَكم منزلةً عند الله أتقاكم له. إنَّ الله عليم بعباده، خبير بأحوالهم، وتدبير أمورهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ قال ابن عاشور: «دلَّ قوله: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ على أنَّ ما نُهُوا عنه مذموم؛ لأنَّه فسوق يعاقب عليه، ولا تزيله إلا التوبة، فوقع إيجاز بحذف جملتين في الكلام اكتفاء بما دَلَّ عليه التذييل، وهذا دالٌّ على أنَّ اللَّمْزَ والتنابُزَ معصيتان؛ لأنهما فسوق». (التحرير والتنوير: ٢٦/٢٠٨).

٢ ـ الأصل في الشريعة التساوي بين الرجال والنساء في الأحكام، إلا

ما دَلَّ الدليل على اختصاصه، وإنما خَصَّ النساء بالنهي عن السخرية لكثرة وقوعه منهنَّ، ولتعظيم حرمة المرأة.

٣ ـ جاء النهي عن اللمز بلمز النفس؛ لأنَّ المؤمنين كالنفس الواحدة، ومَنْ لَمز غيره فكأنما لمز نفسه.

٤ ـ النهي عن اجتناب كثير من الظن؛ لأن بعضه جائز كحُسْنِ الظنِّ بالمسلم.

٥ ـ يجوز ذِكْرُ الآخرين بعيوبهم للتحذير أو للنصح أو للشكاية؛ فالضرورة تُقَدَّر بقَدْرها دون أن يتمادى الشخصُ.

٦ ـ التحذير من الشائعات، وخطرها على المجتمعات، فهي سلاحٌ من أسلحة أعداء الإسلام يسعون من خلاله إلى زعزعة الأمن، وإثارة الفتن، وبَثِّ العداوة، والنيل من الشرفاء.

٧ ـ المساواة بين الناس جميعهم في الخلق والأصل.

٨ ـ التفاضل بين الناس عند الله تعالى بتقواهم.

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾
قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾
يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾

التفسير:

١٤ ـ ١٥ ـ قال بعض الأعراب من أهل البادية: صَدَّقْنا بالله ورسوله تصديقاً تامَّاً بالقول والعمل. قل لهم أيُّها الرسول: لم تبلغوا مرتبة الإيمان ولكن قولوا: أَسْلَمْنا، ولمَّا يدخل الإيمان الكامل في قلوبكم، وإن تطيعوا الله ورسوله لا ينقصكم من ثواب أعمالكم شيئاً. إنَّ الله غفور للتائبين من

ذنوبهم، رحيم بهم. ثمَّ أرشدهم إلى مرتبة الإيمان: إنَّما المؤمنون الذين صَدَّقوا بالله ورسوله، وعَمِلُوا بشريعته، ثمَّ لم يَشُكُّوا وشاركوا بالجهاد بالمال والنفس في سبيل نصرة دين الله، أولئك أصحاب الدرجات العالية، هم الصادقون في إيمانهم.

١٦ ـ ١٧ ـ قل ـ أيُّها الرسول ـ لهؤلاء الأعراب: أتخبرون الله بإيمانكم وإسلامكم، والله يعلم كلَّ ما في السموات السبع والأرَضين السبع؟ والله بكلِّ شيء عليم، لا يخفى عليه شيء، يَمْتَنُّون عليك بإسلامهم ونُصْرَتِهم لك، قل لهم: لا تمتنُّوا عليَّ بدخولكم الإسلام، بل الله يَمْتَنُّ عليكم أن هداكم إلى الإيمان به وبرسوله، إن كنتم صادقين في إيمانكم.

١٨ ـ يُخبر الله تعالى أنَّه يعلم غيب السموات السبع والأرَضين السبع. والله بصير بكل ما تعملون من خيرٍ أو شرٍّ، وسيجازيكم على ذلك.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ الإيمان نعمة عظيمة، ومِنَّةٌ كبرى من الله لعباده. والله تعالى غنيٌّ عن إيمان المؤمنين، فمَنْ آمن فلنفسه.

٢ ـ قال الرازي: «وفيه تحريض على الإيمان الصادق، لأنَّ مَنْ أتى بفعلٍ من غير صدق نية يضيع عمله ولا يعطى عليه أجراً فقال: وإن تطيعوا وتصدقوا لا ينقص عليكم، فلا تضيعوا أعمالكم بعدم الإخلاص».

٣ ـ قال النسفي: «أفاد هذا النظم تكذيب دعواهم أولاً، فقيل: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ﴾ مع أدب حسن، فلم يقل كذبتم تصريحاً، ووضع ﴿لَّمْ تُؤْمِنُواْ﴾ الذي هو نفي ما ادعوا إثباته موضعه، واستغنى بقوله: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُواْ﴾ عن أن يقال: «لا تقولوا آمنا»؛ لاستهجان أن يخاطبوا بلفظٍ مُؤَدَّاه النهي عن القول بالإيمان». (مدارك التنزيل للنسفي: ٤/ ١٦٨).

٤ ـ قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ حسن أدب إذ لم يقل: لا تمنوا علي، بل لي المنة عليكم، حيث بيَّنت لكم الطريق المستقيم. (التفسير الكبير للرازي: ٢٨/ ٩١).

٥ ـ في خَتْمِ السورة دعوة إلى إصلاح القلوب، وتجديد الإيمان، وإصلاح الأعمال؛ فالله تعالى مطَّلعٌ عليها.

٦ ـ اسْتُهِلَّتِ السورة الكريمة بصفتي السمع والعلم، وخُتِمَتْ بصفتي البصر والعلم. وهذا من التناسب بين المطلع والختام.